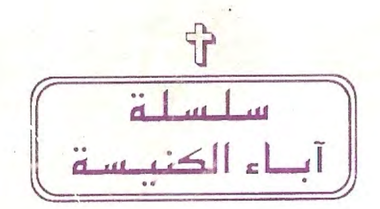
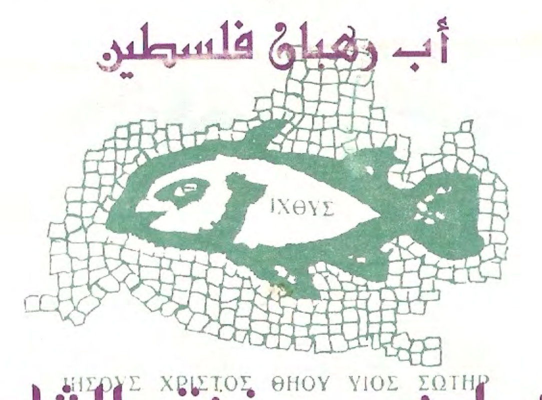
اليوبيل الماسي للكلية الإكليريكية



القديس إيلاريون الكبير

أب رهبان فلسطين



أنطونيوس غزة والشام

✝

علم الباترولوچى
سلسلة آباء الكنيسة

القديس إيلاريون الكبير

ST. HILARION THE GREAT

ترجمة وإعداد

أنطون فهمى چورج



البابا شنودة الثالث



الكتـــــاب : القديس إيلاريون الكبير ـ أنطونيوس غزة والشام
ترجمة وإعداد : أنطون فهمى چورچ .
المطبعـــــة : الأنبا رويس (الاوفست) ـ العباسية ـ القاهرة .
رقم الايـداع : ٨٢١٣

تطلب من :

كنيسة مارجرجس ـ اسبورتنج ـ الاسكندرية .
ص. ب. ١٧ الابراهيمية ـ ت . (٠٣/٥٩٦٩٨٨٨) .

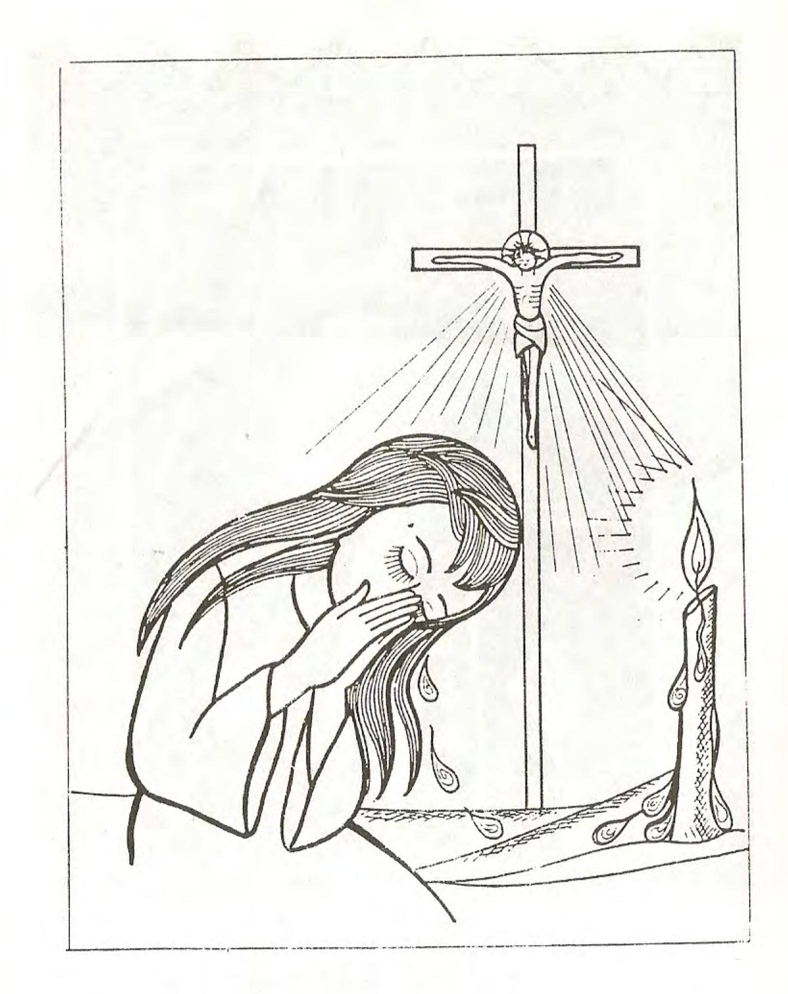
كنيسة القديسين ـ سيدى بشر ـ الاسكندرية .
ت . (٠٣/٥٤٨٧٧٢٨) .

مقدمة

إن الطريق المؤدى إلى الحياة ضيق وشاق ، لذا لزم التعمق فى فكر آباء الكنيسة الذين رسموا الطريق بخطواتهم فى طريق الطاعة والقداسة وحفظ الوصية والتخلى عن كل معرفة بشرية ذاتية ، لكى نتعلم من جديد أن نمشى وأن نبصر وأن نتكلم وأن نصمت فطوبى للكنيسة الممجدة بمثل هؤلاء الآباء القديسين والشهداء والمعلمين والنساك .

إنهم يستوعبون أبعاد الحياة الروحية ويسيرون قدماً فى طريق الأبوة الروحية الحقيقية ، على درب الشهادة الحية العملية ، لذلك تتطلع إليهم أبصار الجميع ، ونحن نحبهم ونكرمهم كرسل لله ، أتوا إلينا وعلمونا وصلوا من أجلنا وسلمونا الطريقة التى نسلكها فنكتشف سر «بداية الطريق» ، فنجد ملكوت الله وبره .

تعاليمهم مملوءة بالحكمة والنضارة الدائمة والخبرة المتجددة ، لذلك العودة إلى كتاباتهم إحياء دائم لتذكاراتهم ، فيزداد إيماننا



قوة ، ورجاؤنا ثباتاً ، وجهادنا خبرة .

قدمـوا حيـاتهم بعد أن التهبـوا بالمحبة الإلهية وبنـار العشق الإلهى ، بعضهم قدم جسده للشهادة بالدم ليشتمها المسيح رائحة زكية ، وبعضهم قدم نفسه ذبيـحة عـاقلة بالجـهاد والسـلوك بـلا عثـرة ، بالذهن والقلب والإرادة القادرة .

وصار لهم الإدراك الروحى والعلم الداخلى ، يشعلون النار الإلهية بلا توقف ، ويميتون شهواتهم بلا إنقطاع ، فاستنارت أعين قلوبهم وأناروا العالم بكلماتهم وقدوتهم فى تدبير وتوافق ، بعد أن أنعم عليهم المسيح بالكشف عن أسراره .

بسطوا أذهانهم نحو السماء وتمسكوا بسلاح الله الكامل ، مقدمين حياتهم مبذولة كموضوع سرور لله ، فى زهد نقى وفى ملء المعرفة ، أغنياء فى طهارتهم وبساطة قلبهم ، مقدمين أعمالهم كقربان مقدس ... فلنتمثل بهم ولنسلك على أثر خطواتهم ، إذ أنهم شفعاء لنا يعينونا ويقودونا إلى الهدف .

إنهم ينابيع تنبع دائماً بلا انقطاع وتمنح المقبلين إليها الماء ،

الطوبى لهم لأنهم قدموا ذاتهم بإرادتهم ، فالطوبى لهم لأنهم أتعبوا أجسادهم بالسهر الروحى والنسك ، الطوبى لهم لأنهم منطقوا أحقائهم بالحق وحملوا المصابيح ، الطوبى لهم لأنهم اقتنوا السكنى مع الله .

ومن هؤلاء الآباء صاحب هذه السيرة **القديس إيلاريون الكبير** الملقب بـ «**أنطونيوس غزة والشام**» ، الذى تعلم أساسيات الإيمان المسيحى فى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وتتلمذ للقديس العظيم الأنبا أنطونيوس العمود المضئ ، فصار إناءً للمعرفة والفرح ومثالاً للنسك وصنع الآيات .

فلنتمثل بهذه السيرة وبصاحبها المغبوط إيلاريون الذى عرف أن يصنع مشيئة خالقه ، مثل نور يرشدنا إلى الخلاص ، ومثل مدينة حصيـنة فوق جبل ، وسراج على منـارة يهدى أقدامنا فى الطريق .

لعلنا نقدم فى هذه السلسلة «**أختوس** ΙΘΧΥΣ » الفكر الآبائى المسجل بأحرف ذهبية ليس فقط فى مخطوطات وأثريات

تفنى وتذوب وتحترق ، بل ايضاً فى سجلات قلوب تذكر على الدوام أن الأبنـاء كانوا أوفيـاء للآبـــاء ، وأن التـلاميذ تمسـكوا بمــواعظ وأقــوال معلميهم كعــودة إلى الينابيع الحقيقـية وكرجــوع إلى الأصــول الثابتة ، ونرجو أن تستــمر هذه السلسلة **«أبـاء الكنيســة»** منارة وضاءة فى الأفاق .

ونرجو أن نسهم بنشرنا لهذه السلسلة الأبائية فى تفتح الوعى الروحى للشعب تجاه آباء الكنيسة ومناهجهم الروحية فى التعليم والنهج بحسب تعليمهم الأصيل ، فيصير مُختَبراً على مستوى الواقع ، وتستنير حياة الكثيرين وتتأصل الحياة المسيحية على نهج الروحانية الآبائية ، وتزداد قدرات القائمين بالتعليم والرعاية لاكتشاف مزيد من النور والدروب والحياة مع الله .

ذاكرين عمل الله فى وسطنا ويده العالية فى هذ الخدمة ، فليتمجد ويتبارك اسمه العظيم القدوس .. ففى هذه الآونة تمر الإكليريكية والتربية الكنسية بمرحلة من أزهى وأهم مراحلها فى الدراسات اللاهوتية والرعوية والمسكونيات ، وتتبوأ مكاناً متميزاً وسط اهتمامات الكنيسة .

ونعرب عن شكرنـا العميق لصاحب النيافـة الحبر الجليـل **الأنبا بيشوى** من أجل مساهمته بالغة الأثر ومن أجل أفضاله وتشجيعــه ، ومديونــون بالشكر لصاحب النيافــة الحبر الجليل **الأنبــا بنيـــامين** الذى يساندنا بصلواته وأبوته...

الله يجعل هذا العمل سبب بركة لكثيرين ، بصلوات أبينا البابا الطوباوى **الأنبا شنودة الثالث** ، وللثالوث القدوس المجد من الآن وإلى الأبد آمين .

غارة عربان الصعيد
على برية شيهيت
١ برمودة ١٧١٠
٩ أبريل ١٩٩٤

القديس إيلاريون الكبير

نشأته

وُلد هذا القديس حوالى سنة ٢٩٢م بالقرب من غزة من والدين وثنيين ثريين من أغنياء المدينة .

وتقع قرية «طاباتا» التى وُلد فيها على بعد خمسة أميال جنوبى غزة فى شمال سيناء .

نشأ محاطاً بكل أسباب العناية والترف ، وتثقف بالعلوم اليونانية ، وإذ كان أبواه يريدان أن يستزيد أبنهما من دراسة علوم ذلك العصر ليمكنه أن يتبوأ مركزاً عظيماً ، أرسلاه إلى الاسكندرية ليتلقى العلم فى مدرستها ويتعمق فى دراسة الفلسفة والمنطق .

وعاش هذا الصبى كما يقول چيروم مثل وردة بين الأشواك ، قادماً إلى الاسكندرية معقل العلم ، كى يتقن فن البلاغة والخطابة والفلسفة ، إذ أنها كانت أكثر الأعمال شهرة آنذاك .

إلا أن الله بعنايته الساهرة ، كما يقول معلمنا القديس بولس

«لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ، والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم ايضاً» (رو٨: ٢٩) إذ بينما كانت غاية إيلاريون من ذهابه إلى الاسكندرية أن يستزيد من حكمة هذا العالم وينهل من معارفه المتعددة ، كانت نعمة الله ـ قبل إيمانه بالمسيح ـ تقوده لغاية أسمى من طلب العلوم ، وتعده لرسالة أعظم .

لقد سمح الله أن يكون قدومه بهيجاً إلى الاسكندرية فى زمان البابا بطرس خاتم الشهداء ، وفى عهد القديس أرشيلاوس عميد مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وهناك أظهر إيلاريون ، على الرغم من حداثة سنه ، مثابرة عظيمة فى تلقى العلوم بغيرة ملحوظة .

تعلم على يد القديس أرشيلاوس مبادئ الإيمان المسيحى ، إذ كانت المدرسة اللاهوتية السكندرية تدرس الفلسفة المسيحية النابعة من صفحات الكتب المقدسة ، باعتبارها أشهر معهد عقلى فى العالم المسيحى الأول ، ومهد اللاهوت فى العالم المسيحى .



إيمانه بالمسيح

كان إيلاريون بطبيعته ميالاً للهدوء ، رزيناً متعقلاً يبحث عن الحق ، فلما ذهب إلى مدينة الاسكندرية العظمى ، لم تبهره المدينة بمظاهرها الخلابة وحياتها الصاخبة ، فأعرض عن تلك الأباطيل ، وانكب على العلم وراح يجالس العلماء والحكماء ويتناقش معهم وكان معظمهم من المسيحيين .

تأثر الشاب جداً من سلوك وأقوال أولئك المعلمين المؤمنين ، فاسترشد بهم وتذوق تعاليمهم ، وابتدأ يدرس على أيديهم العقائد المسيحية ، فمست نعمة المسيح قلبه ، وأنار الروح القدس عقله ، ودرس الكتاب المقدس وفتح الرب ذهنه ليفهم المكتوب ، فوجد أن التعاليم التى يحتويها تفوق بما لا يُقاس كل حكمة ومعارف هذا العالم ، فآمن بالرب يسوع واعتمد على اسم الثالوث القدوس المبارك وبدأ حياة جديدة .

وما إن نال نعمة المعمودية المقدسة ، حتى بدأ يصعد درجات سلم الكمال ، ويسير فى دروب القداسة والتقوى .

لقاؤه مع القديس أنطونيوس

ولما كانت سيرة القديس الأنبا أنطونيوس الكبير تعم أرجاء المسكونة وقتذاك ، وذاع صيت قداسته فى كل مصر وخارجها ، تاق إيلاريون أن يمضى إليه ويتبارك منه ويسمع تعاليمه ، فلما تقابل إيلاريون مع القديس أنطونيوس تأثر جداً ليس فقط من تعاليمه السامية ، ولكن ايضاً من طلعته المشرقة بنور المسيح ، ومن شيخوخته المباركة والمهيبة ، فتحرك قلب إيلاريون بالاشتياق لاقتفاء آثار القديس أنطونيوس وإتباع طريق الرهبنة ، وكان آنئذ شاباً فى مقتبل العمر .

وهناك استقبله الشيخ بفرح ، وعرف بالنبوة ما سيكون له من شأن عظيم فى حياة البر والنسك ، فأحبه وتلمذه بإرشاد عال وأبوة نادرة .

وفى هذا الوقت كان تلاميذ أنطونيوس قد بلغوا مستوى عال من الروحانية والقداسة ، وقد ملأوا الأقطار البعيدة فى ليبيا وفلسطين وسوريا وبلاد العرب وما بين النهرين ، وصار القديس إيلاريون من أشهر تلاميذ الأنبا أنطونيوس ، وقد مكث مقيماً

عنده ومتتلمذا له ما يقرب من شهرين ، مقتدياً بسيرته وعبادته ونسكه ، حافظاً فى قلبه تعاليم معلمه الثمينة التى كان يستمدها من الإنجيل ، واضعاً نصب عينيه حياة أبيه الروحى البار التى كان يؤازرها الروح القدس بقوة فائقة .

ومكث هكذا يتعلم ويلاحظ سيرة العظيم أنطونيوس فى محبته وجهاده وأصوامه وفضائله ، وكيف لم يكن يسمح لضعفه الجسمانى ولا لطبيعة عمره أن يكسرا قانون جهاده ، وصار إيلاريون من أخص تلاميذ القديس أنطونيوس الكبير .

ولكن تزايد عدد الوافدين لنوال بركة العظيم أنطونيوس كوكب البرية جعل إيلاريون يخشى أن ينشغل عن قانون جهاده ، فعرض الأمر على مرشده مظهراً مقدار ما يعانيه من سجس وحروب بسبب توارد الزائرين وخصوصاً أنه ما زال حديث العهد بالرهبنة .

ولما كان الزائرون للقديس أنطونيوس الكبير عدداً غفيراً ، لذا قال إيلاريون فى نفسه أن القديس أنطونيوس يحصد ثمار جهاده الطويل فى الحياة النسكية ، أما أنا فلم أتجند بعد ، وما زلت فى بداية الجهاد... لذا طلب من معلمه العظيم الأنبا أنطونيوس أن

يرحل إلى مكان آخر ، فوافقه على ذلك وزوده بنصائحه الأبوية الحكيمة واعطاه اسكيماً من الجلد .

عودة القديس إيلاريون إلى فلسطين

وعند نزوله من جبل الأنبا أنطونيوس إلى الاسكندرية ، علم بخبر وفاة والديه ، فعاد إلى وطنه وأخذ إرثهما الوفير ، ووزعه على الفقراء ، واضعاً نصب عينيه ـ كما يقول چيروم الذى كتب لنا سيرته بالتفصيل ـ كلمات المسيح له المجد «كذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لى تلميذاً» (لو١٤ :٣٣) .

وهكذا انطلق إيلاريون إلى مسقط رأسه فلسطين ، وهناك مضى إلى برية غزة المقفرة ، التى لم تكن فقط مكاناً بلا ماء ، وموضعاً غير مسلوك ، بل كانت مخبأ لقطاع الطرق واللصوص .

حتى أن كثيرين من محبيه حذروه من المضى إلى هذا القفر ورجوه ألا يذهب ، لكنه خرج إليها كجندى للمسيح متسلحاً بالفضائل والقوة الإلهية ، وبدأ حياته الرهبانية بجهاد شديد وجدية ، فكان يرتدى المسوح على عريه ، ومن فوقها ثوباً خشناً ،

وفوق ذلك كان يلبس الاسكيم الجلد الذى كان القديس أنطونيوس الكبير قد ألبسه اياه ، ومع حداثة سنه ونحافة جسمه ، أخذ يحتمل بصبر ومثابرة البرد القارس والحر الشديد ، ولا ينام ولا يأكل إلا قليلاً مواظباً على السهر المستمر والصلاة الدائمة وعمل اليدين .

وبحسب وصف چيروم المؤرخ لحياة وصفات القديس إيلاريون ، نجده وقد عاش فى كوخ على شاطئ البحر ، على مسافة نحو سبعة أميال من «ماجوما» التى كانت ميناء فى غزة على الساحل القريب من مصر ، واعتزل فى حياة الوحدة ، متشبهاً بالقديس أنطونيوس الكبير ، مجاهداً حتى الدم ضد الخيالات الشريرة وتجارب العدو .

فكان لباسه كما ذكر چيروم مسوحاً واسكيماً ، أما طعامه فكان بضعة ثمرات من التين الجاف وكسرة من الخبز يومياً عند غروب الشمس ، ثم تدرج مع تقدم العمر ، حتى صار حفنة من العدس المنقوع أو قليلاً من البقول غير المطبوخة ، وفى شيخوخته ، قيل أنه لم يكن يأكل خبزاً البتة ، أما مسكنه فكان أولا كوخاً من البوص ، ثم بنى بعد ذلك مغارة وصفها چيروم بأنها كانت

أقرب إلى القبر منها إلى مسكن لشخص أدمى ، فقد كانت فى ارتفاعها دون قامته ، وفى طولها تزيد قليلاً عن طوله وهو راقد ، أما فراشه فكان الأرض والتراب ، أو حصيرة من البوص الخشن .

وقسّم القديس إيلاريون وقته بين الصلاة والإنجيل وعمل اليدين حسب التسليم الرهبانى القبطى الذى استلمه من القديس الأنبا أنطونيوس .

نسكه و صموده أمام حروب الشيطان

أثار عدو الخير حرباً ضروساً على القديس إيلاريون ، إذ وجده غير متكاسل فى الاجتهاد ، حاراً فى الروح ، عابداً الرب بكل قلبه ، مواظباً على الصلاة بلا ملل ، فكان الشيطان يحاربه بكل أنواع اسلحته وحروبه ليحمله على اليأس من تلك الحياة الشاقة ، ولكى تفتر عبادته وتضعف صلواته ، فبدأ يهاجمه بالخيالات والتصورات الشريرة ، ولكن القديس صمد تجاه تلك الهجمات بعزم القلب مستعيناً بنعمة المسيح وضاعف من أصوامه وصلواته ، ولما لم يستطع الشيطان أن ينل من قداسة البار إيلاريون ، أخذ يلقى فى قلبه الخوف والفزع ، فكان يُسمعه فى الليل أصوات

وحوش ضارية تقترب منه لتنقض عليه وتفتك به ، أما القديس فكان يتسلح بسلاح الصلاة ويتحصن برشم ذاته بعلامة الصليب المحيى ، فيولى العدو هارباً منهزماً وتعود إلى القديس الطمأنينة والسلام .

وكلما ازدادت عليه التجارب الدنسة والشهوات الشريرة والخيالات ، كلما ازداد فى الأصوام والأسهار ، ممتنعاً عن الطعام مخاطباً جسده الذى كان يحلو له أن يدعوه «حمارى» بانه لا يستحق أن يأكل حتى الشعير بل الرفش ، وكان كلما ازداد فى عمره ازداد فى صومه ، مداوماً على الصلاة بلا ملل ، مع ترتيل المزامير ، ودراسة الكتاب المقدس دراسة تأملية ، حافظاً له عن ظهر قلب .

وذات مرة داهمه اللصوص ودخلوا عليه مغارته ، ووجدوه راكعاً يصلى ، فقالوا له «ألا تخاف بأسنا وبطشنا؟» فأجابهم بهدوئه قائلاً «إن من لا يملك شيئاً لا يخاف بأساً» فقالوا له «سوف نقتلك» فرد بكل هدوء «إنى لا أخاف الموت لأنى على الدوام مستعد له» فلما سمع اللصوص إجابة القديس المملوءة قوة وثبات ، امتلأوا تخشعاً وحيرة واندهاشاً ، وذهلوا من ثباته وإيمانه ،

واخبروه كيف أنهم ظلوا طوال الليل يبحثون عنه فى كل مكان دون جدوى إذ لم يتمكنوا من رؤيته ، ثم انصرفوا عنه بعد أن وعدوه بأن يغيروا سيرتهم ويرجعوا إلى الله... وهكذا ظهرت القداسة والسيرة الصالحة والثبات خير مؤنب للخطاة وقطاع الطرق وأفضل حافز لتوبتهم .

جهاده وذيوع صيته

عندما تقدم إيلاريون فى القامة النسكية ، اثار عليه عدو الخير حرباً قاسية جداً ، بإثارة الخيالات الدنسة والتصورات النجسة ، بل كثيراً ما تراءى له فى صور نسائية .

وإذ وجد الشيطان انه قد فشل فى ذلك ، لجأ إلى محاربته بالأشياء المخيفة ، فكان يظهر له فى شكل جمهور من الجنود المسلحين ينوون الهجوم عليه بغضب شديد ، ولكنه كان إزاء كل هذا يتسلح بعلامة الغلبة والنصرة .

وبقى القديس إيلاريون فى هذه البرية حوالى ٢٢ سنة ، إذ كان الله يعده ليكون مرشداً لكثيرين وليهدى الخطاة إلى التوبة ، وليحمل العديدين على اتباع طريق الكمال .

وقبل الكثير من الوثنيين الإيمان المسيحى متأثرين من مثاله الإنجيلى الحى ، ومن أقواله المنيرة المملؤة حكمة ورغب العديد من المترددين عليه فى اتباع سيرته واقتفاء أثاره ، فتتلمذوا له تاركين كل ما لهم من مقتنيات هذا العالم مستجيبين لنداء هذه الدعوة الرهبانية .

معجزاته

اراد الله أن يظهر بره للناس ، فبدأ يشرفه بالعجائب ، وإذ بإمرأة عاقر لم تلد لزوجها لمدة خمسة عشر عاماً ، حتى صارت مبغوضة منه ، هذه أتت إلى القديس بإلهام إلهى ، وانطرحت عند قدميه باكية متوسلة أن يصلى من أجلها أمام الرب فتحنن القديس عليها وقال لها «ثقى فى الله يا إمرأة فهو يعطيك سؤال قلبك» وإذ بها فى العام التالى تأتى إليه حاملة على ذراعيها طفلاً منحها الله إياه وكان ذلك بداية لشهرته .

وصنع القديس إيلاريون آيات كثيرة باسم المسيح ، واستجاب الله لصلواته المقبولة فنزل المطر وانقضى القحط ، واخرج الأرواح النجسة التى كانت تقول: «ما لى ولك يا إيلاريون عبد الله» .

ويذكر القديس چيروم أن تنيناً عظيماً كان يقتل الناس والبهائم حتى هدد الحياة ، فأشفق القديس عليهم ، وجمع خشباً واشعل فيه النيران بالقرب من موضع ذلك التنين ، وتوجه إليه يأمره باسم السيد المسيح أن يصعد فوق ذلك الخشب المشتعل ، وفعلاً بقوة إلهية صعد ذلك التنين واحترق وصار رماداً .

وفى قبرص كان صاحب الأرض المحيطة بمغارته الشاهقة رجلاً مقعداً ، فباركه إيلاريون وقال له «باسم يسوع المسيح قم وامشى» فقام ومشى ومجد الجميع الله .

وايضاً فى مدينة بافوس بقبرص عندما وصل إليها القديس أخذت الأرواح النجسة تصرخ على أفواه الذين كانت تسكن فيهم قائلة «هوذا إيلاريون عبد المسيح الحى قد حضر إلى قبرص ، وكان يلزم أن نمضى من هنا» وبدأ المعذبون بالأرواح يتقاطرون إليه ليشفوا .

ويروى الكاتب الفرنسى شينو أن سيدة أصيبت بداء شديد فى عينيها ، مما افقدها البصر ، وإذ انفقت كل ما تملك على الأطباء والعلاج ، ذهبت إليه أخيراً تسأله أن يصلى لأجلها ، فأمرها أن توزع مالها على الفقراء بدلاً من الأطباء ليتحنن عليها الطبيب

الحقيقى ويشفيها... فشفيت بصلواته وتمجد به وفيه اسم إلهنا .

بينما كان ألبيدوس ، وهو رجل مقتدر وذو سطوة راجعاً من مصر إلى غزة ، عقب زيارته للقديس الأنبا أنطونيوس الكبير ، هو وإمرأته وأولاده الثلاثة... حدث أن أولاده الثلاثة اصيبوا بمرض جعلهم على حافة الموت .

فذهبت الأم تفتش فى البرية عن موضع القديس إيلاريون وقالت له «يا إيلاريون عبد المسيح الحى ، اعد إلى أولادى ، فعندما كنت فى مصر حفظهم لى القديس أنطونيوس سالمين ، وأنت هنا تحفظهم سالمين» .

فذهب القديس وصلى من أجل أولادها ، فشفاهم الله بصلواته ، ونهضوا وقبلوا يده وأكلوا وبدأ الجميع يسبحون الله ويمجدونه ، وهكذا كما قيل فى سفر الرؤيا «ويعرفون اننى أنا أحببتك» (رؤ٣:٩) .

وأتى إليه كثيرن يطلبون الشفاء ، فكانوا لا يرجعون إلا أصحاء ، كما أعطاه الله ايضاً موهبة إخراج الشياطين ، الأمر الذى ساعد على ربح الكثير من الوثنيين فى مدينة غزة .

إن طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها ، لذا خصه الله بموهبة صنع العجائب ، فأخذ المؤمنون يتوافدون عليه لنوال بركته والاسترشاد بتعاليمه ، وعاد كثير من السالكين فى دروب الخطية إلى التوبة ، ونال كثيرون من المرضى والسقماء نعمة الشفاء بقوة صلواته المستجابة .

القديس إيلاريون أب الرهبان

(أنطونيوس الشام)

ومنذ ذلك الحين بدأ الانتشار الفعلى لنموذج الحياة النسكية والرهبانية فى بلاد فلسطين وسوريا وبدأ الكثير من المعجبين بالسيرة الملائكية فى الإلتفاف حوله والتلمذة على يديه ، إذ لم يكن قد سبق لأحد فى هذه البلاد أن رأى هذا النمط من الحياة .

ويقول چيروم أن الشرق عرف بذلك كوكبين مشرقين بالقداسة وسمو الفضائل ، أحدهما فى مصر وهو الانبا أنطونيوس الكبير ، والثانى فى برية الشام وهو الانبا إيلاريون ، الذى كان القديس أنطونيوس يقول عنه لمنْ يأتى إليه من هناك «لماذا تكبدتم مشقات الطريق وعندكم ابنى إيلاريون الذى يمكنكم أن تنالوا منه ما تطلبونه منى» .

وجذبت شهرة القديس إيلاريون جموعاً من المسيحيين ، سواء من طالبى الشفاء أو من طالبى الرهبنة ، الراغبين فى الحياة النسكية .

وتكاثر عدد الرهبان تحت قيادته وتدبيره ، فبنى لهم الأديرة ودبت الحياة الرهبانية فى برارى فلسطين ، غرباً نحو البحر وشرقاً نحو الأردن ، وتعددت الأديرة ، وكان الجميع يعتبرون القديس إيلاريون أنه الأب والمدبر والمرشد لكل رهبان فلسطين ، وأخذ القديس إيلاريون يطوف كل سنة على هذه الأديرة ، يرشد رهبانها ويثبتهم فى الدعوة التى دعاهم المسيح إليها .

وبينما كان ذاهباً ذات يوم بصحبة بعض رهبانه لزيارة أحد الأديرة التى أنشأها بالقرب من مدينة اليوسا (خلوصا) ، والتى كانت تقع بأرض الأدوميين ، كان الوثنيون قد اجتمعوا ليقربوا ذبيحة للألهة فى عيدها السنوى .

وحالما سمعوا بقدومه ، خرجوا جميعاً ومعهم كاهنهم لاستقباله وهم يحنون رؤوسهم ، ويقولون باللغة العربية «باركنا ، باركنا» وكان القديس يتقن العربية والأرامية ، ولما رأهم مقبلين

عليه بابتهاج وسرور ، رفع نظره إلى فوق نحو السماء يطلب المعونة الروحية ، وطلب من أجل شفائهم باكياً إلى الرب كى يخلصهم... وكلمهم بكلمة الحياة مبيناً ضلالة عبادة الأوثان ، كارزاً لهم ببشارة الفرح الأبدى .

فآمنوا بإنجيل ابن الله ، وحطموا الأوثان ، وبنوا فى وضعها كنيسة (فى خلوصا جنوب بئر سبع) ومكث معهم بعض الوقت يعلمهم مبادئ الإيمان وما يلزم لخلاصهم وحياتهم .

تنقلاته لأجل حياة الوحدة

ازدادت على القديس مسئولية تدبير الرهبان ، وتكاثر عدد الزوار باطراد ، فلم يعد ينعم بالوقت الكافى لصلواته وتأملاته ، ففكر أن يهرب إلى برية آخرى بعيداً عن المشغوليات ، مفضلاً الهدوء ، فلما علم بعض أولاده بما نوى عليه ارادوا أن يثنوه عن عزمه بتوسل ، ولكن القديس لم يقبل وقال لهم: «إننى رجعت الى العالم ثانية ، وها قد نلت أجرى فى حياتى بسبب تكريم الناس لى فهم يظنون اننى ذو نفع لهم » .

وسرعان ما توافدت الجموع حتى بلغت حوالى عشرة ألاف

شخص ليثنوه عن عزمه ، طالبين ببكاء ألا يفارقهم ، أما هو فقد صمم على الرحيل ، وصام سبعة أيام متتالية لا يأكل ولا يشرب ، وإذ رأوا شدة تصميمه وخشوا على حياته ، أخلوا سبيله ورافقوه حتى انطلق إلى برية بعيدة .

ثم توجه إلى دير القديس أنطونيوس الكبير ، وكان ذلك بعد نياحته بحوالى سنة واحدة ، ومن هناك رحل إلى منطقة أفروديتة بالقرب من الشاطئ الشرقى للنيل ، ومكث هنـاك بعض الوقت يمارس جهـاده النسكى بنشـاط عظيم ، وقيل أنه مكث هنـاك مـدة .

ولكن إذ بدأ خبر وصوله ينتشر ، وأعمال الله تظهر فيه وبه ، واصبح مكرماً عند الشعب ، فر هارباً إلى الاسكندرية ، وهناك ثار عليه الأمبراطور يوليانوس الجاحد بسبب إيمان جموع كثيرة من الوثنيين ، فمضى القديس من هناك وسكن فى الواحات الداخلية مدة حوالى سنة ، ولكنه إذ صار هناك ايضاً مكرماً عزم على أن ينفرد فى إحدى الجزر ، وسافر مع تلميذ له يدعى زانانوس نحو سنة ٣٦٣م إلى جزيرة صقلية ، حيث اختلى بها بعض الوقت فى برية مقفرة ، ولما انتشر صيته ، سافر من هناك إلى دلماسيا ولكنه ما

لبث أن هرب مرة أخرى إلى جزيرة قبرص مع تلميذه هيزيكيوس .

فاح عبير قداسته فى كل البقاع ، عندما شفى الأوجاع النفسية والعلل الروحية والأمراض الجسدية ، واقبل عليه الأساقفة والكهنة راغبين فى نوال بركته وارشاداته .

فأفاض الله عليه غنى نعمته وقوة وملأه بتعزياته وأيده ببرهان الروح والقوة ، فبارك وشفى المترددين باسم ربنا ومخلصنا وملكنا يسوع المسيح ، ممارساً النسك والعبادة إلى النفس الأخير وإلى يوم نياحته .

تعاليم القديس وإرشاداته

كان القديس يركـز فى تعاليـمه لتلاميـذه على الـهدف المستقيم ، فبدون هدف حقيقى يصعب أن يكون للصلاة حرارة وقوة ، إذ أن الهدف يستطيع أن يحفظ الدافع من الإنحراف ، وكان القديس يُطعم تعاليمه بأمثلة حية لترسخ هذه التعاليم فى ذهن مستمعيه وليستمدوا منها عبرة ودرساً فى مسيرة جهادهم .

وللتدليل على ذلك ، نورد هنا هذا الحديث للقديس إيلاريون:

سُئل القديس إيلاريون رئيس رهبنة فلسطين عن تعليل رجوع بعض الأخوة إلى العالم بعد أن يكونـوا قد ساروا فى الحيـاة الرهبانيـة ، وكيف يتحاشى الإنسان المجاهد التأثر بهم؟ فقال لهم: «إنه يليق بنا أن نأخذ مثلاً لذلك من كلاب الصيد التى تنطلق وراء الأرانب البرية ، فانه يحدث أن أحد الكلاب يلحظ أرنباً بعيداً فينطلق وراءه ، وإذ ترى الكلاب الأخرى التى معه أنه يجرى فإنها تنطلق تجرى معه ـ دون أن تكون قد رأت الأرانب ـ فتظل تجرى معه ولكن إلى فترة ما ، حتى يثنيها التعب والجهد عن تكميل مشواره الطويل ، أما هو فيستميت فى تقدمه لا يعطى لنفسه راحـة ولا يتعـطل بسبب الكـلاب الأخـرى التى تخلفت وراءه ، بل يظل يجـرى حتى يفوز بما كان يراه غير عابء لا بالعثرات التى تصادفه فى طريقه سواء كانت حجارة أو أشواكاً ، ولا بالجروح التى تصيبه ، هكذا الإنسان الذى يتبع محبة المسيح ، ينبغى عليه أن يثبت نظره على الصليب إلى أن يفوز بالمصلوب الذى صـلب عليه ، حتى ولو رأى الكل قد تخـلفـوا ورجـعوا إلى الـوراء» .

نياحته

مكث القديس إيلاريون بمغارته بقبرص والتى كانت على صخرة ، زهاء خمس سنوات ، حتى بلغ الثمانين من عمره ، فاعترته حمى شديدة ، وعرف بالروح أن وقت إنطلاقه قد حان ، وكان يشدد نفسه ويردد بإيمان هذه الصلاة «اخرجى أيتها النفس للقـاء العريس ، لماذا تخافينه بعد أن خدمـته هذه السنين الطـويلة؟» .

وكتب بيده خطاباً إلى تلميذه هيزيكيوس الذى كان وقتذاك فى جولة تفقدية لأديرة فلسطين ، تاركاً له ثوبه والإنجيل المقدس والإسكيم الجلد الذى كان يلبسه والذى كان الأنبا أنطونيوس الكبير قد أعطاه اياه ، وهذا هو كل ما كان يملكه.

فلما علم أهل جزيرة قبرص بخبر نياحته اقبلوا مسرعين لنوال بركة جسده الطاهر ، ودفنوه عندهم... وبقى تلميذه عشرة أشهر متنسكاً فى هذا الموضع الذى دفن فيه معلمه .

نقل جسده

عزم هيزيكيوس تلميذه ورفيق غربته على نقل رفاته إلى بلاده فلسطين ، ولما كان يعلم مدى محبة سكان جزيرة قبرص ورغبتهم فى الاحتفاظ بجسده ، حمل الجسد سراً وأبحر به إلى بلاد فلسطين ، حيث أودعه ديره الأول فى «ماجوما» فاستقبله الرهبان بحفاوة وإكرام فى ديره القديم ، وأجرى الرب من جسده عجائب باهرة ، فتحقق القول الإلهى «إنى أكرم الذين يكرموننى» (١صم٢ :٣٠) .

شهادة التاريخ له

يشهد المؤرخ چيروم أنه أول منْ سلك فى طريق الرهبنة فى بلاد الشام وفلسطين ، فإذا كان القديسْ مكاريوس الكبير هو الذى خلف القديس أنطونيوس فى رهبنة برية شيهيت ، فإن إيلاريون هو خليفته فى بلاد فلسطين والشام ، وقد قدر عدد الذين تتلمذوا له من المتوحدين بحوالى أربعة آلاف متوحد ، إذ أنه المؤسس الحقيقى لرهبنة غزة وفلسطين وسوريا .

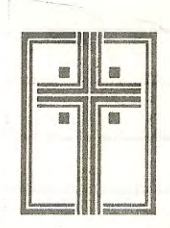
ويشهد چيروم ـ كاتب سيرته ـ أن البعض يتعجبون من نسك

هذا القديس وتدبيره ، والبعض الآخر تدهشه الايات والعجائب بحكمته ، وآخرون يتكلمون عن فضائله...كان يأتى إليه عدد غفير من الشعب بكافة طبقاته من علمانيين وأكليروس بكل رتبهم ، ومن عامة الشعب ومن القضاة والولاة والمتقدمين... كان يجتهد فى أن يخفى ذاته تاركاً موضعه ، مسافراً من الشرق إلى الغرب ، باحثاً عن خلاص نفسه محتقراً الأباطيل والمجد الباطل .

تكريمه

تحتفل به كنيستنا القبطية فى اليوم الرابع والعشرين من شهر بابه ، وتحتفل به الكنيسة اليونانية والرومانية فى ذكرى نياحته فى اليوم الواحد والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) .

بركة صلاته تكون معنا آمين .



الفهرس

مقدمة ٥
نشأته ١٠
إيمانه بالمسيح ١٢
لقاؤه مع القديس أنطونيوس ١٣
عودته إلى فلسطين ١٥
نسكه وصموده أمام حروب الشياطين ١٧
جهاده وذيوع صيته ١٩
معجزاته ٢٠
القديس إيلاريون أب الرهبان ٢٣
تنقلاته لأجل حياة الوحدة ٢٥
تعاليم القديس وإرشاداته ٢٧
نياحته ٢٩
نقل جسده ٢٩
شهادة التاريخ له ٣٠
تكريمه ٣١